

## (كل نفس بما كسبت رهينة)

### الحرية الخاصة والعامة

عبد الرحمان السالمي \*

لم تتشغل الإنسانية في عصورها المتطاولة بقضية عامة بقدر ما انشغلت بقضيتي السلام والحرية، ولو تأملنا الأمر وقلبناه على وجوهه المتعددة لوجدنا أنه حتى قضية السلام لها علاقة وثيقة بقضيتي الحرية والعدالة، ذلك أن الحروب الكثيرة -التي ثارت قديماً وما تزال تثور في أنحاء العالم المختلفة وبخاصة في المنطقة العربية/الإسلامية- إنما تعود للافتقار إلى الحرية وإلى العدالة، فالحرية ضرورية لتحقيق السلام والاستقرار ذلك أنه من طريق الحرية الفردية والجماعية يسعى الإنسان لتحقيق الاستقرار والعدل في حياته وحياة مجتمعه، وفي علائقه مع مجاوريه ومع العالم أجمع.

وإذا كان المتبادر إلى الذهن من وراء (خطاب الحرية) أن المقصود به حريات المجتمعات والدول في علاقات بعضها ببعض، فلا شك أن ذلك كله يتأسس على الحرية الفردية؛ وذلك لأن الأفراد الأحرار هم الذين يصنعون المجتمعات الحرة والدول الحرة، وهذا معنى قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لبعض من يحاولون السيطرة على الناس والاستبداد بهم: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

فالأصل في الإنسان الحرية التي أسس لها القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: (كل نفس بما كسبت رهينة) فهذه الآية ترتب التكليف والمسؤولية على حرية الإنسان في الفكر والقول والعمل؛ ذلك أن الذي لا- يملك الحرية في هذه المسائل لا يستطيع أن يتحمل المسؤولية فيما يأتي أو يدع من سائر الأمور.

ويبلغ من قدسية الحرية الإنسانية أن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يكره الإنسان حتى على الإيمان، فهو يخاطب رسوله الكريم قائلاً: (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ويقول: (لا- إكراه في الدين) ويقول: (ولو شئنا لأتينا كل نفس هداها). فمشيئته سبحانه وتعالى- أن يكون الإنسان حراً، حرية تتأسس على فطرته وعقله وعلى إدراكه لمصالحه وغايات وجوده في هذا العالم. وهذا أيضاً هو معنى قوله تعالى: (وهديناه النجدين) أي أنه سبحانه زوده بالعقل والتمييز وأعدّه بحيث يتمكن من ممارسة حرية الاختيار هذه دون سائر المخلوقات التي تقودها غرائزها، وتقودها طبائع حاجاتها الفيزيائية.

على أن لتلك الحرية الأصلية شروطاً ومحددات وسياقات وإلا لما كان لها معنى كبيراً ولما ترتبت عليها مسؤوليات هي أيضاً في أساس إنسانية الإنسان. وأول تلك الشروط أو

المحددات أن هناك سنناً طبيعية واجتماعية لا- يمكن للإنسان أن يخترقها أو يستعصي عليها بحجة الحرية. فالذي يتحدى السنن الطبيعية محكوم عليه بالهلاك، والذي يتحدى السنن الاجتماعية محكوم عليه بالفشل الذي يؤدي إلى الشذوذ والخروج، وقد يؤدي أيضاً إلى الهلاك، ذلك أن أفعال الإنسان ذات مقاصد وغايات لصدورها عن العقل، وتجاهل المقاصد والغايات يُحول الأفعال إلى عبث عابث.

وثاني: تلك الشروط والمحددات للحرية ومن بينها شرط الملائمة، أي أن يكون التصرف مناسباً للغرض الذي جرى القيام به من أجله. وفي السياق الاجتماعي هناك أيضاً شرط آخر للملائمة وهو أن تكون الوسيلة المختارة للوصول إلى الغاية ملائمة أيضاً.

وثالث: تلك الشروط للفعل الإنساني الحر أو الذي يستحق هذه التسمية (الحرية) أن لا يشذ ذلك الفعل عن السياقات الخاصة أو العامة شذوذاً يخرجُه عن حدود العرف الإنساني أو الاجتماعي فالإنسان في مجتمع معين لا يستطيع التصرف على هواه إذا كان ذلك يُضر بالآخرين وجوداً أو مصالِح. وهذا معنى القاعدة الفقهية: لا ضرر ولا ضرار، على أن الفرد في المجتمع الإسلامي لا- يكتفي منه بأن يكون فعله لا يضر الآخرين بل له مقاييس أخلاقية تتناول الفعل بحد ذاته؛ لأنه إما أن يكون له أو عليه: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى).

ورابع: تلك المحددات للحرية يتعلق بمفهوم المؤمن المكلف على وجه الخصوص بالفرد الذي أختار الإيمان تتجلى حرّيته في أن يتقصد بها الخير والبرّ: (من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)، (وأن ليس للإنسان إلا- ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى).

وخامس: تلك المحددات للحرية يتعلق بمفهوم المواطن في المجتمعات والدول. والمعروف أن هذا المفهوم له صلات بأربعة أمور: المساواة، والانتماء إلى مجتمع ودولة، وثنائية الحق والواجب، والخضوع للقوانين. وبالنظر إلى تأسس الحرية في فطرة الإنسان من جهة وكونه عضواً في مجتمع ومواطناً في دولة، ظهرت معظم قضايا ومشكلات الحريات الخاصة والعامة. فالواقع أن مفاهيم الخصوصية ألصق بحاجات الإنسان الفطرية والأخرى المتطورة، بينما تتصل الحريات العامة أكثر بكونه مواطناً وحقه في المشاركة واجبة في ممارسة الدفاع عن مجتمعه ووطنه ودولته.

لقد اهتمّ الفقهاء المسلمون كثيراً بمفهوم الحرية أو خصوصيات الفرد التي تحميها الشريعة، ولا- يجوز لأحد خاص أو عام التدخل فيها أو اختراقها، وازدادت مفاهيم الخصوصية الفردية تحديداً في الأزمنة الحديثة. أما مسائل (الحريات العامة) التي تعرفها الدول المعاصرة فإنها حديثة نسبياً ويكثر حولها الجدل والخلاف. وبالوسع اليوم أن نتعلم كثيراً من تجارب الأمم والدول الأخرى في نطاقها ومجالاتها المتشابهة.

ويقصد هذا العدد من مجلة التسامح إلى قراءة مفاهيم (الحرية)، قراءة نقدية في عوالم

الإسلام والحدائفة والمجتمعات المعاصرة، وهى مفاهيم خير لها أن تعرف، وأن يجري حولها النقاش.